الهروب إلى "الحب" والعراق

يجمع بين الهاربين في السعودية من الفتيان والفتيات قواسم مشتركة عدة، كما يلتقي أهلهم عند نقاط كثيرة، بيد أن لكل هارب قصة ولكل قصة مغزى. هناك هاربون ذكور أو إناث من العدالة، وآخرون من الظلم والقسوة والجفاء الأسري. القواسم المشتركة بين الهاربين أبرزها "الاختفاء" وبين أهليهم "القلق والفزع" من المصير المجهول لابنهم أو ابنتهم.

لكن غزو أميركا لأفغانستان سابقا وللعراق أخيراً، والأحداث الإرهابية في السعودية خلال السنين الماضية والقوائم التي أُعلنت مراراً، جعلت هروب الفتيان أخطر، فما من عائلة اختفى عنها ابنها مهما كان مثالاً للاستقامة والاعتدال يومين أو ثلاثة إلا وتضع ضمن الفرضيات السيئة احتمال أن يكون "ذهب إلى العراق" أو "اختفى مع خلية إرهابية".

وشهدت الصحف السعودية في المدة الماضية إعلانات متقطعة عن مفقودين تحولت أعداد منهم إلى قنابل في السعودية أو خارجها، عدا آخرين كان هربوا لأسباب غير إيدلوجية.

ويقول الناشط السعودي ماجد المرسال لـ "الحياة": "هروب الشبان السعوديين من أسرهم يعد واحداً من الأسباب المفضية إلى الإرهاب والسفر إلى أفغانستان أو إلى العراق، وتبدأ أولى حلقات الهروب عندما يشعر أحد الشبان الصغار أن (التزامه الديني) يستدعي أن يجري تغييراً شاملاً على حياة أسرته، فإذا كانت لديها تلفزيون فإنه يحاول إبعاده عن المنزل، وإذا كان منهم من لديه بعض التقصير في السنن فإنه يحاول إجباره على الالتزام بها"!

"وفي مثل هذه الحالات" يقول المرسال: "يلجأ الشاب إلى الهروب من أسرته إلى خلية تتفق معه في التفكير، وهناك يتأثر بالأفكار المتداولة بين عناصر الخلية إن كانت تكفيراً أو دعوة إلى الجهاد في العراق أو في أي مكان ...إلخ".

ومع أن المرسال ينشط في مجالات دعوية محضة إلا أنه كشف أن آباء يشتكون إليه واقع أبنائهم، عندما يتحولون من أشخاص عاديين إلى "متشددين" في الدين.

الهروب هو الحل!

"أحدهم أتاني يبكي بكاء مرّاً أفجعني. قضيته أن ابنه الجديد على الدين قال له: إما أن تسلمني ولاية الأسرة (أمه إخوانه وأخواته) وإما أن أهجر البيت تماماً. نصحت الأب بتمكين الولد من السيطرة لينظر ماذا سيفعل".

كان أول قرار أصدره المتدين الجديد - والكلام للمرسال- "منع البنات من الدراسة، وفرض الالتحاق بمدارس تحفيظ القرآن على إخوانه. غير اسمه الذي سماه به والده لاعتقاده أنه يحمل محظوراً شرعياً مع أنه كان عادياً. تدخل الوالد وأنهى مسلسل الرعب في المنزل وفتش جهاز ابنه فوجد فيه كتبا ومنشورات تحرم الدراسة وتدعو للجهاد وتتعاطف مع المخربين. لم يكن أمام مثل هذا إلا الهروب"!

وبدوره يجزم المرسال أن "الذهاب إلى العراق" بوصفه ميداناً للهروب من جانب الشباب الأكثر خطورة في الوقت الحالي "لا يتورط فيه شاب يعيش حياة طبيعية مع أسرته، وأتحدى أحداً يثبت عكس ذلك".

تلقى اتصال الهروب وينتظر التالي!

أما رب أسرة يدعى (أحمد) في أحد أحياء مدينة الرياض، فلم يزل متأثراً بالنهاية التي ألقاها ابنه إلى مسامعه واختفى من ورائها، ووصف معاناته لـ "الحياة" قائلا: "ابني عاش مع منظومة متكاملة من إخوان وأخوات ووالدين يعتزان به. لا تبدو عليه أي أمارات الانحراف، فهو وديع بطبعه. لم يشارك في أي تجمع مشبوه في ما نعلم. في منتصف رمضان زعم أنه خارج مع أصحابه إلى الديار المقدسة. هل يسعنا إلا أن ندعو له بالقبول وأن لا ينسانا من صالح دعائه؟ لكنه لم يعد إلا صوته الذي انبعث من الأسلاك

ليهتف قائلاً: "أنا في العراق". ومع أن أمل نجاته في الله وحده إلا أنني أنتظر اتصالاً آخر في أي لحظة يقول: "قتل". إنه يعلم أنني ووالدته رافضين لذهابه كلياً. حتماً الهروب حله الوحيد"!

يرجعن بأجنة في البطون!

وفي جانب الفتيات الهاربات لم تكن النهاية مختلفة كثيراً، بل لو سئل ولي أمر فتاة انتهت إلى السجن في قضية أخلاقية عما سيختار: أن تموت ابنته أو تلبس ثوب العار لما تردد في تفضيل الأول.

قصص الفتيات الهاربات من أسرهن إلى (المجهول) التي يتداولها السعوديون كثيرة، وإن كانت في معظمها تتقاطع عند "بوابة السجن" أو رجل "الهيئة" الذي يعرف نفسه بالمنقذ لـ "الفتاة" من الذئاب البشرية.

ومن بين الحوادث التي انتهت بهروب "فتاة" من أسرتها قصة (نجاح) – وهو اسم مستعار بالطبع – التي تقبع خلف أسوار سجن النساء بالرياض.

في المرحلة الثانوية هربت مع عشيقها الذي تعرفت عليه عن طريق الهاتف، وتطورت علاقتها معه حتى أقنعها بأن تخرج معه فاستجابت في ساعة ضعف أمام إلحاحه، لكنه لم يراع براءتها وهوى بقداسة حبها له إلى مكان سحيق مع شرفها الذي انتزعه منها انتزاعاً، بعد رفض والده المتكرر لخطبة العشيق، الذي برر (الأب) رفضه بأنه لا يصلي وسمعته سيئة في الحي الذي يسكنه.

مضت الأيام واللقاءات تتابع بين العاشقين، حتى أوقفهما "رجال الحسبة" في مساء لم يكونا به مسرورين، تم القبض عليهما في خلوة غير شرعية، اتضح بعدها أن الفتاة كانت هاربة من والدها منذ شهرين!

استدعي والد الفتاة الذي بلغ عن هروبها - كما يحكي عبدالعزيز الجميعة - الموجه في سجن النساء بالرياض، ويطلب منه تسليم ابنته فإذا بها حامل من عشيقها! طلب من الجميعة مقابلة تلك الفتاة لخوفها الشديد من والدها بعد أن علمت أنها حامل من ذلك الشاب. قابلها وهدأ من روعها ووعدها بأن يقابل والدها ويتباحث معه في هذا الموضوع ومن الغد حضر والد الفتاة بعد أن أبلغ بالعثور على ابنته.

جاء الأب ودموع الخوف تملأ وجنتيه مطأطئاً رأسه يخشى أن يراه أحد يعرفه. ذُكر بأن البنت أمانة في عنقه، والواجب عليه الآن أن يفكر في كيفية تجاوز هذه المصيبة والوقوف مع ابنته في هذه المرحلة الخطيرة خشية أن تصل إلى طريق مسدود.

لحظات الدموع والنظرات الحانية

يقول الجميعة كما نقلت صحيفة محلية: "طلبت من الوالد أن يقابل ابنته ويتحدث معها فحالتها النفسية منهارة جداً، فسبحان الله كم كان قلب الأب كبيراً، وكم كان قلب الأب رحيماً. نسي ألمه وأحزانه وقال: وهل سأستحمل أن أراها بهذه الحالة؟ قلت له:

اصبر وما صبرك إلا بالله، سيعينك الله وادعُ الله أن يقويك. تمت المقابلة فأخذت الفتاة تقبل يد والدها وهي تبكي وبحرقة والأب ينظر إليها بشفقة ورحمة، يتخيل كيف سيكون مستقبل تلك البنت يتخيل ذلك الجنين ما مصيره وما مصير ابنته وماذا سيقول لإخوانها وأخواتها والناس، وأين سيذهب بها بعد خروجها؟ وهل سيكون هذا الطفل معها؟ أسئلة كثيرة جداً تدور في رأس هذا الأب المسكين المشفق. بقيت هذه الفتاة حتى أنجبت ثم خرجت هي إلى بيت أبيها والطفلة إلى دار حضانة الأطفال. تلك هي نتيجة العلاقات المحرمة، هذه نتيجة الثقة بالشباب الذين يتبرأون من ضحيتهم"!

الهروب ... يعني البحث عن بديل!

في معظم الحالات يعيد علماء الاجتماع والنفس أسباب انحراف الأبناء فكرياً إلى " "غياب لغة الحوار بين عدد من الأسر وبين أبنائها البالغين" كما ترى أستاذ الاجتماع في جامعة الملك سعود الدكتورة آمال عبد الرحيم، "الأمر الذي يترتب عليه غالباً انفصام عرى التفاهم بين البيت والشاب، ما يدفع بأعداد من المراهقين إلى البحث عن بدائل تعوضهم عما افتقدوه بين أسرهم، ولذلك فإن غياب الحوار يشكل خطراً كبيراً على الأسرة".

ويعيد المختصون في علم الاجتماع – حسب عبد الرحيم نفسها – نفور بعض المراهقين من ظلال أسرهم " في المقام الأول إلى مرورهم بمرحلة ما قبل النضج العاطفي ما بين الطفولة

والرشد، ويقع دور كبير على الآباء في تفهم ظروف مرحلة المراهقة بوصفها بالغة الحساسية، كونها مرحلة يسهل فيها انحراف الناشئ الذي لم يزل متقوقعا بين النضج والطفولة".

وتضيف: "في كل جانب يفترض أن الأسرة هي الصدر الحنون الذي يمتص تقلبات المراهق. إنه إذا لم يجد من يفسر له ماذا يحدث معه سواء على صعيد التغيرات العضوية أو النفسية ولم يجد من يستوعبه، في ظل ظروف قاهرة مثل الطلاق بين الوالدين أو اختلافهما وعدم الشعور بالإشباع العاطفي، لا بد أن يوجد البديل خارج إطار الأسرة وهنا تكون المشكلة. هنا يقع في مأزق تأثره بأقرانه، في حين أن المفترض أن تكون الأسرة هي المصدر الأول للحنان والعاطفة، والمنبع الذي يستقي منه الابن والمراهق باستمرار".

ختام "غير مسك" للهروب!

رئيس مركز مكافحة الجريمة في وزارة الداخلية سابقاً الدكتور عبد الله اليوسف رغم إقراره بأن الهروب الذي وصفه بـ"الخروج عن النسق الأسري" يمثل مشكلة إلا أنه عاد واعتبر هروب الفتيات "ظاهرة ليست بالحجم الكبير" من واقع المعلومات والدراسات التي لدى المركز. لكنه يرى الهروب إجمالاً " أحد المؤشرات التي قد تؤدي إلى الانحراف، وأحيانا أحد الطرق المؤدية حتما إلى الانحراف".

ومن جانبه اعتبر عضو مجلس الشورى السعودي الدكتور خليل الخليل "الاختفاء عن أنظار المجتمع – ممن كان – ينبئ عن إشكالية من الإشكاليات التي يعاني منها المختفي أو قضية يريد أن يحققها"، وعده "ضوءاً أحمر يستدعي الحذر والانتباه والتوجس، لأن النتائج لهذا الاختفاء غير مألوفة وغير معلومة، في مجتمع مثل السعودية لأنه مجتمع متواصل ومترابط"

وقال لـ "الحياة": "ملاحظ أن كثيرا من الإرهابيين الذين أصبحوا خطرا على مجتمعهم ودولهم استخدموا هذا التكتيك: التخفي عن أنظار قوى الأمن والسلطة. الإنسان السوي واضح في سلوكه، وله منزل يأوي إليه وأسرة يرتبط بها، وله عمل يعمل فيه. إذاً ترك قنوات المجتمع مؤشر على وجود إشكالية، لذلك من المفيد للعوائل عندما يختفي أحد أفرادها المبادرة بالبحث عنه، والاستفادة من القنوات المتاحة من الأصدقاء والحكومة للبحث عنه".

وبرر ذلك بأن "وقوع هذا الإنسان في قبضة رجال الأمن أفضل له من أن يتمكن من تحقيق الأهداف التي اختفى من أجلها، فدوافع الهروب في الواقع الموجود ليست اجتماعية بل هي أيدلوجية وفق تكتيك مدروس لإيهام المجتمع والسلطة، وبعد الأحداث التي ذاق وبالها المجتمع لن نصدق كثيراً من الأسباب التي تقال هنا وهناك. ثمة مشكلة يجب أن نواجهها وهي التشدد والهروب باسم الاسلام. هذا النوع من الهروب غير مسبوق في مجتمعنا، وبالتالي فهو ضوء أحمر، علينا أن نأخذه بجدية".

وحذر من الهروب الاجتماعي المحض أيضا ورأى التنبه له واجباً "فربما استخدمت بعض الفتيات الهاربات اجتماعيا في العمليات الإرهابية".

ويرى مدير إدارة العلاقات والتوجيه في وزارة الداخلية الدكتور سعود المصيبيح أن الهروب على الرغم من خطورته "إلا أنه ليس بالضرورة أن ينتهي إلى الإرهاب، وهروب الفتيات في الواقع الاجتماعي السعودي خطير، لكنه لا يشكل حتى الآن ظاهرة تهدد تماسك الأسرة واستقرار الوطن".